منارات

manarat

ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة الأيام للإعلام والثقافة والفنون

فخري كريم

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير

www.almadasupplements.com

العدد (5345) السنة العشرون - الاربعاء (11) كانون الثاني 2023

صلاح فضل

2022 - 1938

الناقد العربي صلاح فضل:
النقد ممارسة علمية والبنيوية لم تمت

حاوره: حيدر ناشي

تبوأ شيخ النقّاد العرب، أستاذ الادب العربي الدكتور صلاح فضل ، المكانة العلمية والثقافية الكبرى في عالمنا العربي بنظرياته الادبية الاصيلة ومؤلفاته وترجماته، وكذلك رئاسته ومشاركاته للعشرات من المؤتمرات الادبية في شتى دول العالم، التقته الصباح الجديد في القاهرة.

× اتجاه بعض كتّاب القصة والرواية الى النقد الادبي، هل تعدّه عجزاً في مجالهم فأستسهلوا وظيفة النقد؟

–أظن إن التوجه الى الصحافة وسهولة تحبير الصفحات الطويلة، من دون مراجعة للنفس والإتكاء على ثقافة عميقة ومعرفة علمية مؤسسة منهجياً، هو الذي يغري هؤلاء الكتّاب بأحتراف ما يبدو ظاهرا كتابة نقدية، وهي في الحقيقة ثرثرة لا أكثر. الكاتب المبدع يجب أن تتوفر لديه الموهبة الخلاقة، يُولد أو يكاد يولد بها، لابد من وجود لمسة من العبقرية، نفحة من نار الخلق في قدرة التكوين، وأما تطمرها الاحداث والظروف الشخصية، أو يشعلها الوعي وتزكيها التجارب، فيمتلك نوعين من الخبرة لا غنى عنهما، الخبرة الوجودية بالحياة بحيث يستطيع النفاذ الى طياتها وأعماقها وتعقيداتها مدركاً ببصيرة ثاقبة أسرارها، والقدرة الجمالية على صياغة كل ذلك بأشكال فنية مبدعة ومتجددة ومدهشة للقارئ، وإذا لم يغذّ صاحب شرارة الموهبة قدراته بهذين النوعين من الخبرة سرعان ما ينطفئ. إن من يوظف طاقاته الفنية في ما يقارب الكتابة النقدية، لا يكتب نقداً حقيقياً، لان النقد مهنة وحرفة وله مناهج، فأستسهاله بوصفه ثرثرة سفح له وامتهان بطبيعته، ومن يفعل ذلك يريق دمه هباءً وحبره نثاراً. الناقد الحقيقي لا يخلو من موهبة ابداعية، إذ يملك الشرارة نفسها لكن وعيه النقدي يسبق قدرته الابداعية، وقد يكون هذا الوعي عاتياً وظالماً فيطفئ قدرته على الابداع، حيث يمارس الناقد جبروته على نفسه، فيحكم عليها بقسوة، فإذا كتب شعراً لم يرضه، وإذا كتب غير ذلك لم يشبع طموحه، فيئد مواليده الصغيرة، أما الناقد الذي يجمع بين النقد الحقيقي والكتابة الابداعية فمن النادر جداً ان يتفوق بالامرين، في كل الثقافات هنالك ولع من المبدعين في كتابة النقد، لكنه يحلّق بجناح مهيض، ودائماً يثير قدراً من الإشفاق والسخرية عندما يكون أحد جناحيه مرتفعاً شامخاً، والآخر شبه مكسور أو مهيض.

× استشرت حمى النقد في الاوساط الادبية، واستعمل بعضهم القوالب الجاهزة في نقودهم، ترى الى أين مآل النقد الادبي كونه علماً قائماً بذاته؟

– هناك بيئتان موآتيتان لبزوغ نقّاد حقيقيين، البيئة الاكاديمية، لكن وجود النقّاد فيها ليس ميسوراً في عصرنا الراهن، فمن بين مئة استاذ يقومون بتدريس الادب يصعب العثور على ناقد واحد، مع إنهم جميعاً يحفظون القواعد ويعلمونها للطلاب، لكنهم لا يملكون الوهج المعرفي والبصيرة النافذة، عيونهم تتجمد على الكتب، وتعمى عن النفاذ الى الحياة وأكتشاف جواهر الابداع بالواقع الثقافي المحيط بهم، لا يستطيعون التمييز ومعرفة القيم بدقة، فيستوي لديهم كتاب عبقري مع ثرثرة فارغة، وأحياناً تكون الثرثرة موضوعاً لدراساتهم في الجامعة، لذا أشعر تجاههم بالاشفاق والرثاء، أما البيئة الثانية التي تفرز نقاداً هي مختبر الحياة الثقافي، الذي أصبح يتجسد ألان في الصحافة والاعلام، وهذه أيضاً بيئة شديدة التشويش والرداءة، الكتابة فيها متاحة لكل وصولي وانتهازي ومن يستطيع التمويه والتحريف والتناقض وصياغة مقولات مليئة بالمجاملات، حيث يمكن وجود عمل واحد تقرأ عدة مقالات ترفعه لعنان السماء، وأخرى تخسف به الارض نتيجة تفاوت المصالح والانحيازات، ليأتي ناقد حقيقي يمتلك حاسة التمييز وقدرة التقييم ودقة المعيار فيضع الامور في نصابها ولابد أن يصدقه التاريخ. إن المصداقية يصنعها الوسط الثقافي بتغيراته وتحولاته وفوق كل ذلك التاريخ، فهو الذي يمنح الخلود لبعض الاعمال مهما كان رأي المعاصرين فيها، ونأخذ مثالاً أبو الطيب المتنبي اعظم شعراء العرب، إذ لم يثر احد في تاريخ الشعر العربي من الاحقاد والضغائن والاتهامات مثله، حيث يقال إنه أخمد ذكر ألف شاعر معاصر له، لكن هؤلاء لم تكن السنتهم قصيرة معه، كانوا يسرقونه بألسنتهم، وبرز منهم بعض الكتّاب الذين كتبوا عنه واتهموه بالسرقة، وهي الفضيحة الاولى لأي شاعر، فألمفارقة الملفتة للنظر التي تحتاج الى حل، إن أعظم شاعر في تاريخ العربية، أدانه معاصروه وعدوه سارقاً، إلا إنني وفقت إلى حلها في أحد ابحاثي، فبينت بطلان هذه التهم، المتأتية نتيجة احقاد المنافسين له، وتنحلات الرواة فيما بعد. التاريخ هو الحكم الثاني لتحديد القيمة، وحاول النقد الحديث الغاءها لكنه لم يستطع محوها، لانها ليست جامدة أو واحدة أو دائمة، وليست عنصراً متفرداً، هي منظومة من العناصر تتبدل ببطء وتتغير بأيقاع محدد.

× يعتقد البعض إن النقد الاكاديمي جاف لايحتوي المرونة في تفكيك النص، ومعتمد على قواعد غير قابلة للنقض او المناقشة، مارأيك بهذه الطروحات؟

– في اجابتي على السؤال السابق ستجد انها تتضمن ماهو أشد في نقد النقد الاكاديمي، وأنا اظن إنه لايوجد شيء اسمه قواعد النقد. أذكر في شبابي كنت مولعاً بأن أكون ناقداً، وجدت كتيباً اسمه (قواعد النقد الادبي) للكاتب الانكليزي (لاسل آبر كرمي) وكنت حينها طالباً في المعاهد الازهرية قبل الانتقال الى جامعة القاهرة، فتخيلت إن النقد الادبي له مجموعة قواعد احفظها وبهذا اصبح ناقداً، إلا إن خيبتي كانت شديدة، فالكلام الوارد في هذا الكتيب لا يحتوي على أي قاعدة. النقد ليس قواعد على الاطلاق، فهو عبارة عن فلسفات جمالية ومناهج علمية وقدرات ابداعية على معايشة النصوص وقراءتها وتأويلها، وهذا ما كشفت عنه ثورة النقد الحديث التي قامت بها (البنيوية) وبناتها الجميلات ممن يطلق عليهنّ (ما بعد البنيوية) منذ ذلك الحين تبيّن لي في الاقل، إذ لا اعرف هل الرؤية واضحة عند الاخرين أم لا؟ إن النقد قد اصبح في جزء كبير منه ممارسة علمية. يحلو لي دائما تشبيه النقد بالطب، فالطب في العصور القديمة ينظر الى الانسان بأعتباره كائناً مزدوجاً من جسم وروح، فيغرق نتيجة لهذا البعد الروحي في الغيبيات، ويصبح جزءً من الفلسفة، لغاية مجيء العالم الفرنسي (كلود برنارد) نهاية القرن التاسع عشر وكتب كتابه الشهير عن الطب بوصفه علماً تجريبياً فقال بما معناه «نحن لانعرف ماهي الروح، والطب لا شأن له بها، الطب يتعامل مع المادة، جسد يمرض تدخل فيه بعض الدواء، فيصح او يزداد مرضاً او يظل على حاله، وتجري عليه التجارب حتى تعرف كيف تتعامل معه» فأخرجه من ميدان الفلسفة، واصبح الطب منذ تلك اللحظة علماً، وانتهى الطب الروحاني او ترك للمنجمين والمحتالين، بالتوازي مع ذلك قررت البنيوية إن الادب ليس مجموعة من العواطف المتوهجة أو عدداً من الافكار أو كياناً ميتافيزيقياً، وإنما للادب جسد وهو اللغة التي لها أسرارها بطبيعة الحال، كما إن هناك إنسانا ميتا وآخر حيا، اللغة ايضاً لها حياتها، والنقد لا يدرس اللغة الميتة بل يدفنها ويغطيها بطبقة سميكة من التراب، وهذا لم يكن سهلاً، إنها ثورة حقيقية في الفكر النقدي.

أنا اعجب ممن يقولون إن البنيوية قد ماتت، المذاهب التي تكتشف جزءً من الحقائق العلمية تتوالد وتتعدد وتُراجع، لكنها لا تموت، لان ما يحدث في مذاهب الفكر والادب والنقد يوازي الى حد ما مذاهب النظريات الطبيعية، فالقانون الطبيعي ليس خالداً لكنه يتغير بالتدريج وطالما كان قادراً على تفسير الظواهر فهو كامل ومكتفى به، وإذا خرجت عن اطاره بعض الظواهر نتيجة العجز فلابد من تعديله لكي يشملها، لكن لا يستطيع احد مطابقة العلوم التجريبية مع النظريات الادبية، ولايمكن إخضاع الاداب والفنون لها، إلا إن التطور في نظريات الادب ينحو كل يوم الى اكتساب ارض جديدة وإدخال بعض المساحات من الادب في منطقة العلم، برغم إنه لن يخضع تماماً الى العلم ولسبب بسيط لانه يرتبط بالمخيلة وهذه تستعصي على التحديد ولايمكن لاحد القبض عليها والتنبؤ بقوانينها ومعرفة متى تنطلق وإلى أي مدى تستطيع الوصول.

× تقننت الصورة الشعرية في قصيدة النثر، فتحولت الى محض سرد لانعرف جنسها الادبي احياناً، الام تحيل أسباب ذلك؟

– من الذي قال إن الصورة الشعرية في قصيدة النثر اقتصرت على الجانب السردي؟ هل انتهيت إلى نظرية كاملة عن قصيدة النثر وأدركت كل اسرارها ووضعت قواعدها وأستقر أمرها لدى كل الدارسين؟ لا أحسب ذلك، لان قصيدة النثر في صلبها تجربة لا يقصد بها التصوير لانه قائم في شعر ما قبل قصيدة النثر، وبدرجاته القصوى العظمى في قصيدة التفعيلة ومن قبلها القصيدة العمودية، فلم يكن الشعر على الاطلاق خالياً من الصورة، ثم إن هناك نوعين من الصور (استعارية وسردية) والشعر القديم عرف الصور السردية التي لا تعتمد على المجاز والتشبيهات. تجربة قصيدة النثر في صلبها تهجر الايقاعات المحسوبة المنظمة في القصيدة الخليلية وقصيدة التفعيلة، لكي تبحث عن إيقاعات جديدة، حتى ألان في ما أعرف، إلا إذا كان هناك أشياء لا أعرفها وهذا إحتمال قائم جداً لم يحدد لنا لا شعراء قصيدة النثر ولا نقادها ماهي الاكتشافات التي أتت بها في البنى الايقاعية؟ وهل يمكن ضبطها وتحديدها ومعرفتها مثلما ضبط الفراهيدي الاوزان الاخرى أو مازالت تجارب؟ شعراء قصيدة النثر ينجحون حينما يكتشفون الايقاعات الجديدة ويوظفونها لكي تشبع حسّنا ليس الدلالي فحسب لان اللغة تصنع ذلك، ولا التخيلي فقط وإنما الموسيقي، فالشعراء المفتقدون لموهبة الموسيقى غير صالحين لقول الشعر بأي شكل من أشكاله، وفي مقدمته قصيدة النثر، لان الشعر في جوهره منظومة من القيم منها الايقاع، ولا اقصد الايقاعات الخليلية فهذه ما فُرز وحُدد وعُرف، إنما الايقاعات بكل اشكالها، ظاهرها وباطنها، خفيها وبارزها.

× هل تعتقد إن المسابقات الشعرية أحيت الشعر بعد الغزو السردي في عصرنا الراهن؟ أم انها انزلت الشعر من عليائه فأبتُذلت الصورة والمفردة؟

– أظن إن المسابقات الشعرية والجوائز الادبية والمشروعات الثقافية الكبرى أثرها لابد أن يكون إيجابياً، وهناك بعض الجوائز التي تحتكم الى قضاة غير أكفاء وغير منزهين، فيجيزون أعمالاً ليس أفضل مما في السوق من إنتاج والاسباب كثيرة، أيدلوجية وطائفية وغير ذلك، وهؤلاء يطعنون أنفسهم بخناجرهم، فيسيئون للحركة الادبية والثقافية. المسابقات بشكل عام تكتسب أهميتها وقيمتها من حسن أختيارها للمحكمين، فأذا اختارت محكماً ضيق الافق، محدود الثقافة، يخضع لانحيازاته واكراهاته، سوف تكون نتيجة المسابقة محبطة، وسوف يعمى عن كون المسابقة دافعاً وحافزاً قوياً وأداة جيدة للاحياء الابداعي وتنمية المواهب، لذا يجب أن يكونوا حكاماً يتميزون بالنزاهة والكفاءة والعدل، وإدراك حقيقة الشعر. هناك مسابقات تحيي الشعر والادب العربي بشكل عام، وحينما أتحدث عن تجربة (أمير الشعراء) كاد قبلها صوت الشعر خفت الى حد بعيد، وأنصرف اصحاب المواهب الشعرية إلى كتابة فنون اخرى تستطيع أن تضمن لهم الذيوع والانتشار والحضور الثقافي، لكن بمجرد أن بدأت المسابقة جدياً، وأعتمدت على معايير موضوعية وجهت لها سهام النقد، إلا إن في نهاية الامر حركت الاجواء الراكدة فكنا نتلقى في كل دورة ما لايقل عن (٢٠٠٠) قصيدة من كل أنحاء الوطن العربي، يظن أصحابها إنهم شعراء، مهما كانوا حسنيّ النية، لكن منهم في الاقل ١٠٪ وهم (٢٠٠) شاعر لديهم موهبة، و١٪ يمثلون (٢٠) شاعرا، شعراء حقيقيين، وتفرز في نهاية الامر (٥) شعراء الذين يبقون للمرحلة الاخيرة، كل منهم يمثل وعداً حقيقياً منجزاً للشعر العربي، في سبع دورات قدمنا ما لايقل عن (٤٠) شاعراً حقيقياً، وهؤلاء ليسوا قليلين، وبعضهم الان نجوم يسبحون في أفلاك اوطانهم والوطن العربي، قد يخمد بعضهم ويخيب ظننا، لكن بالنتيجة اصبحت الصورة بعد عشر سنوات مختلفة عما كانت عليه من قبل. لا أعرف مسابقة أخرى قامت بهذه المهمة في الشعر الفصيح، سمعت هناك في المغرب العربي بعض المحاولات لكن لم يقدّر لها الاستمرار، وفي المشرق العربي سمعت بعض المحاولات وفي مصر أيضاً، وكلها تصب في صالح انتشار المبدع والابداع العربي.

في رحيل صلاح فضل: من الناقد إلى عين النقد

نبيل سليمان

رحل صلاح فضل الغني عن الألقاب، والذي حمل منها أبهاها. رحل صاحب المقالة الصحافية الشهرية (عين النقد) في مجلة (الصدى) الإماراتية. رحل صاحب كتاب (عين النقد على الرواية العربية المعاصرة - ١٩٩٧)، وصاحب كتاب (عين النقد وعشق التميز: مقاطع من سيرة فكرية - ٢٠١٨). رحل صلاح فضل وقد حُقّ له ما عنون به تلك المقالة وهذين الكتابين، فصلاح فضل هو عين النقد، كما حُقّ له ما لقبه به تلامذته ومريدوه: أيقونة الحداثة والفكر.

يغلب على اللقاء الأول بين مثلي في سورية ومثل صلاح فضل في مصر، أن يكون في الكتاب. كان هو ناقدًا معروفا وأستاذًا جامعيًا، وكنت بعد ثلاث روايات وكتاب مشترك في النقد مع بوعلي ياسين، والحديث يتعلق بسبعينيات القرن العشرين الماضي، حين قرأت لصلاح فضل كتابيه الرائدين الصادرين عام ١٩٧٨: (منهج الواقعية في الإبداع الأدبي) و(نظرية البنائية في النقد الأدبي).

كانت تلك السبعينيات سنوات المخاض والولادة، وتجذير الفكر النقدي، والدربة على النقد الأدبي الحداثي، وتشقق العباءات جميعًا: الماركسية والإسلامية واليسارية والنقد الأدبي الجامعي، وكل ذلك على إيقاع هزيمة ١٩٦٧، وإذا بكتابي صلاح فضل يرجّانك بالمنهجية الواقعية والبنيوية – البنائية كما يفضل - والحداثة.

من بعد سيتجدد اللقاء الأول في الكثير من مؤلفات صلاح فضل ومن ترجماته، وسيكون من الطبيعي أن نتعانق كصديقين قديمين ذات سنة، في بلد ما، في ملتقى ثقافي أو نقدي أو روائي.

ها نحن معًا، مثلا، في رحاب جامعة مدريد المستقلة (أوتونوما) قبل ثلاثين سنة. كنت ضيفًا على الجامعة، بصحبة ذلك الأندلسي العربي الإسباني بيدرو مونتابث، وكان صلاح فضل يظللنا، فهو الغائب الحاضر الذي طالما انثالت ذكرياته ونحن في وكنة من وكنات كورنيش النيل في القاهرة، فإذا به طالب أزهري يطير إلى مدريد طالبًا، ثم أستاذًا في جامعة أوتونوما، ثم... ثم تحمله أجنحة الشباب والطموح والكفاءة العلمية إلى المكسيك أستاذًا في جامعتها المستقلة، ومؤسسًا لقسم اللغة العربية وآدابها في تلك الجامعة.

"أعلن صلاح فضل في كتاب (سرديات القرن الجديد) انتماءه إلى دائرة النقد التطبيقي المعني بالممارسة النقدية أكثر منه بالتنظير، والمعني أيضًا ببلورة قواعد لتلك الممارسة، كيلا يلتبس بالمراجعات الصحافية الجهولة أو الصاخبة أو الإعلانية».

كانت ظلاله العلمية والإنسانية تخفق في رحاب القاعة التي جمعتني مع طلبة الدراسات العليا، وفي كل عشية مع مونتابث. ويبدو أن ذلك الخفق بلغ روايتي التي أوقفتها على تلك الرحلة إلى إسبانيا، أعني (في غيابها – ٢٠٠٣). على الأقل، هذا ما أضمرته وما أعلنته كتابة صلاح فضل عن هذه الرواية التي وصفها باللعوب. وكم ردد عليّ أنه كان ثالثنا، هو والرواية وأنا، لحظة بلحظة عندما كانت أنفاسًا ملء مدريد أو طليطلة أو إشبيلية أو غرناطة أو سرقسطة، وعندما كُتبت، وعندما قرئت.

ما أكثر وما أبدع ما كان يجود به عليّ من سيرته الشخصية خلال أكثر من ثلاثين سنة. أما سيرته الفكرية فقد أوقف عليها كتابه (عين النقد عشق التميز- ٢٠١٨)، ولم يكن التميز الذي عشقه من النرجسية. بل أحسبه من مفهومه الخاص للنقد. فالنقد عنده هو فن التمييز.

وسأمضي هنا إلى المأثرة النقدية الكبرى لصلاح فضل، والتي تتعنون بالنقد التطبيقي. فهذا الأكاديمي الذي خوّض في رحاب النظرية والتنظير عبر عشرات الكتب ومختلف الجامعات والأبحاث والأطروحات التي أشرف عليها، وبالتالي مختلف الأكاديميين الذين تخرجوا على يديه؛ هذا الناقد المفكر أولى النقد التطبيقي عنايته القصوى، كما في كتبه (أساليب السرد في الرواية العربية – ١٩٩٣) و(عين النقد على الرواية المعاصرة – ١٩٩٧) و(التمثيل الجمالي للحياة في الرواية العربية - ٢٠٠٩)، وبصورة خاصة في كتبه (سرديات القرن الجديد – ٢٠١٥) و(أنساق التخييل الروائي – ٢٠١٨) و(أحفاد نجيب محفوظ – ٢٠١٨). عدا عن كتبه النقدية المتعلقة بالشعر، وصولًا إلى الشعر العامي في كتابه (شعر العامية من السوق إلى المتحف – ٢٠١٩).

أعلن صلاح فضل في كتاب (سرديات القرن الجديد) انتماءه إلى دائرة النقد التطبيقي المعني بالممارسة النقدية أكثر منه بالتنظير، والمعني أيضًا ببلورة قواعد لتلك الممارسة، كيلا يلتبس بالمراجعات الصحافية الجهولة أو الصاخبة أو الإعلانية. فالنقد التطبيقي في عُرْف صلاح موجّه لكافة القراء، بما هو مقاربات مركزة، تسعى إلى اكتشاف تقنيات وشعرية النص، ولا تخضع إلى منهج تحليلي محكم. وقد كان كل ذلك مفصلًا حاسمًا في علاقتنا النقدية والثقافية.

في مجلة "روز اليوسف" (٣/٣/٢٠١٨) حدثه المحاور عمن يصف نقده المنشور في الصحف، وهو ما شكّل كتبه خلال العقد الأخير من حياته. وفي ذلك الوصف أن نقود صلاح فضل في الصحف لا تتجاوز عرضًا للكتب، مما أثار غضبه فرد بأن من يقول هذا القول لا يفهم في النقد شيئًا. وأنقل هنا هذا القول الهام سواء للنقاد المتعالين على التطبيقي، واللابدين في دفء النظرية والأكاديمية – على ضرورتهما، بالطبع – وكذلك للمتعيشين في الصحافة من فتات النقد. قال صلاح فضل: "المقال النقدي يمثل رؤية، وأنا أنقل جوهر التجربة التي بسطها المؤلف. لا ألخص التجربة فقط، بل أشير إلى مناطق الجمال والحيوية، وأشير إلى المؤلف بخبرتي وإلى طبيعة اللغة ونوع الخبرة التي يقدمها العمل الإبداعي، فمن يتصور أن ذلك مجرد عرض للكتب فهو جاهل، ولا علينا إذا لم تفهم البقر».

بعيدًا عن هذا، ها نحن معًا، مثلًا، في الدورة الأولى لمهرجان عبد السلام العجيلي للرواية العربية، الذي انعقد عام ٢٠٠٥ في مدينة الرقة التي أعلنها (داعش) عاصمة دولة الخلافة الإسلامية إلى أن دالت الدولة. وكنت بعونٍ من مدير الثقافة في الرقة آنذاك، الصديق حمود الموسى، قد هيأت برنامج المهرجان وأغلب قائمة المشاركين فيه، وعلى رأسهم صلاح فضل الذي هامسني عندما خرجنا من منزل عبد السلام العجيلي: بدأ السحر يأخذني.

وعلى مشهد من نهر الفرات، أعاد العبارة. وحين استضاف المؤتمر كله الصديق بوزان علي البشير الهويدي الذي كان أحد الطلاب الذين درّستهم في ثانوية الرشيد في الرقة، وحين تربع صلاح فضل كالآخرين على الأرض وأمامه (المنسف) الذي توسطه خروف بقدّه وقديده، هامسني: خلاص، السحر يا نبيل أخذني خلاص.

أكاد أقول ما مر يوم منذ أربع سنوات لم نتبادل فيه بالواتس رسالة صوتية أو كتابية أو صورًا، إلى أن أعياه المرض. وقد كان لقاؤنا الأخير في مطلع عام ٢٠١٨ حين دعاني إلى العشاء في نادي السيارات مع الصديقتين الدكتورة أماني فؤاد والدكتورة زهور كرام. وكان قد جمعنا مؤتمر (التنمية المستدامة) الذي نظمه المجلس الأعلى للثقافة في مصر. وقد أخبرني الدكتور سعيد المصري – وكان رئيس المجلس - أن أعمال المؤتمر سوف تصدر في أربعة مجلدات خلال معرض الكتاب القادم في القاهرة، وأن البحث الذي شاركت به (الإثنية والطائفية كصدوع هوياتية في سورية) سيظهر في المجلد الثاني. وكنت قد أهديت صلاح فضل نسخة من البحث، فهتف لي في الغداة حزينًا، ولن أنسى كلماته: هل هذه هي سورية المتشققة إذن!؟ لا، ليست هذه سورية. وفي ذلك الاتصال كانت الدعوة إلى النادي الذي أدخله لأول مرة، مثل زهور كرام. لكنني كنت أعرف القليل عن النادي من القليل الذي قرأته من رواية علاء الأسواني الضخمة (نادي السيارات – ٢٠١٣). وبينما بدأ صلاح فضل يتحدث عن النادي رحت أدقق في الوجوه، وأستذكر من الرواية وأتساءل: من هو الخادم عبدون، وأين هو الكوو، وأيهم هو السفرجي والبارمان والشيف..؟

ولكن لماذا تراني أكتب وأتذكر وأهرف وأحبس الآهة وأغالب الدمعة؟ من قال إننا لن نلتقي من بعد أيها الصديق الأستاذ، يا عين النقد ويا عاشق التميز؟

عن موقع الضفة الثالثة

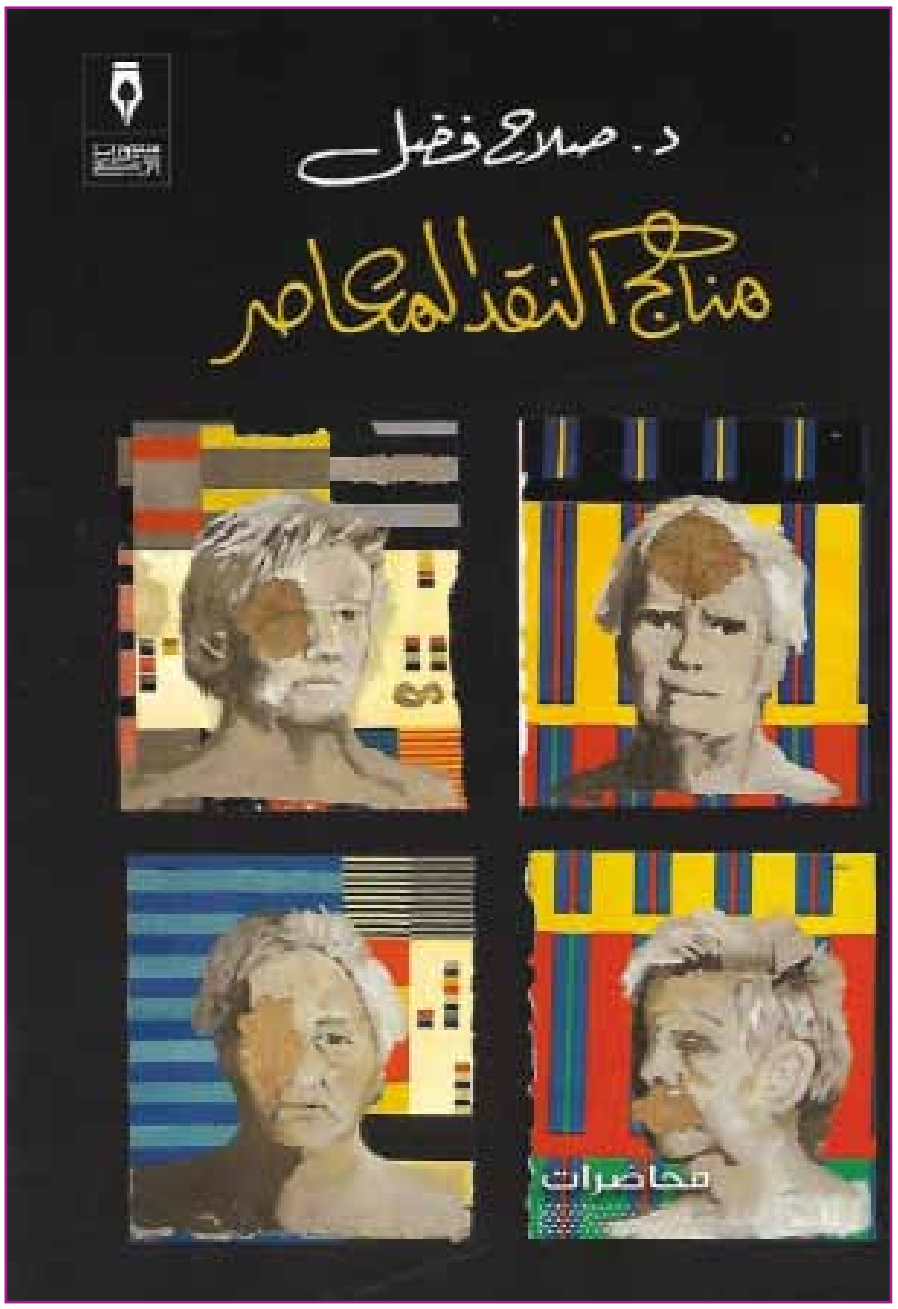

صلاح فضل والأبوة النقدية

د. نادية هناوي

ليسوا كثيرين أولئك الآباء الذين أسسوا لتقاليد أدبية ونقدية من خلال كتاباتهم ومشاريعهم وتجاربهم التي على هديها سار اللاحقون متابعين أو مطورين. وإذا كان للتطوير أن يمد في قوة البناء الذي شيده هؤلاء الآباء المؤسسون، فان للإتباع أن يديم حيوية التأسيس الذي عليه ستشيد الأبنية. وتختلف هذه الأبنية، فمنها ما هو علمي محض، ومنها ما هو أدبي محض، ومنها ما يجمع العلم بالأدب، لكن التقليد يظل واحداً بوصفه منهجاً أو طريقاً شقه مبدع أو عالم وسُمي باسمه أو ارتبط به بشكل مباشر أو غير مباشر.

ومن نافلة القول إن التأسيس ليس مثل البناء، لان الأول يحتاج أدوات تحفر في ارض بكر لتضع أوتاد بناء جديد يغرسه المؤسس صحيحا كي يمكن البناء عليه والإضافة إليه. ولا يقتصر التأسيس على لغة ما أو ثقافة شعب معين، بل إن الاباء المؤسسين موجودون في كل زمان ومكان يعطون للحقل الذي يؤسسون فيه حيوية ويجعلونه مطبوعا بهويتهم الخاصة والمميزة.

وفي ثقافتنا العربية تاريخ طويل ضارب في القدم لآباء مؤسسين، شهدت العصور العباسية منهم كثيرين نقادا وأدباء وفلاسفة وعلماء، وحفلت تأسيساتهم بالاهتمام التنظيري والتطبيقي.

ولقد شهد عصرنا الحديث نهضة نقدية قادها الرعيل الاول المؤسس ومن بعدهم جاء جيل من النقاد، منهم من كان مؤسسا للحداثة أو للالسنية أو الاسلوبية كالدكتور صلاح فضل الذي رحل إلى الرفيق الأعلى قبل أيام لكنه جمع مع التأسيس النقدي أمرا آخر يحاذي النقد ويجاوره وهو الأبوة النقدية التي كان الراحل مؤسسا لها ومقرونة بمن شملتهم رعايته الأبوية.

ونعني بالأبوة أن يتبنى الناقد الادبي شبابا في مقتبل أعمارهم ويساعدهم بقصد الأخذ بأيديهم عبر تدريبهم وتقويم كتاباتهم أو مساعدتهم في أن يكونوا فاعلين أو مراقبة أفعالهم وتزويدهم بالخبرة لولوج عالم الادب والنقد في أقصر وقت وبأقل مشقة. وبالطبع لا ينوء بحمل هذه المهمة إلا من وجد دوره النقدي يقتضي منه أن يكون مثالا لمريدين يجدون فيه أبا جديرا بأن يكون منطلقا لهم في اشتغالاتهم النقدية ومطامحهم أيضا في الظهور والانتشار.

فالأبوة غير متاحة إلا لمن تمتع بالصورة المثالية للناقد الأب. كأن يكون مساعدا لهم وقريبا ممن يرعاهم لا يبخل عليهم بالمشورة ولا يقتر عليهم بما يقدمه من خبرة. وعادة ما يكون هؤلاء اما طلابه أو اصدقاءه أو ممن يصطفيهم من داخل الوسط الادبي أو الثقافي. وعددهم في الغالب لا يتجاوز عدد اصابع اليد، فالطاقة على الرعاية لا تقدر على أكثر من ذلك وبما يضمن للأب العدالة بين من يدعمهم ويوجههم وصولا الى تماهيهم مع صورته الابوية.

وهم بالمقابل سيكنّون له الاحترام ويؤدون ما ينبغي عليهم تأديته كبنوة أدبية وثقافية بها يؤكدون انضواءهم تحت جناح أبوته والتزامهم بكل توجيهاته وارشاداته فلا يخرجون عليها، لا احتراما للأب المتبني فقط وإنما استجابة لنداء الرغبة في أن يكونوا مثله وبشكل سريع وقياسي، ومن دون الأب سيطول عليهم الوقت في الاعتماد على أنفسهم في تحقيق هذه الرغبة.

وإذا كان حال الابوة مفروغا من أهميتها، فإن حال البنوة يظل موضع نقاش ومراجعة، لا من ناحية مساهمة النقاد الجادين في تثبيت دعائم ما بناه الأب الناقد أو الميل عنها أو المراوحة في المكان نفسه من دون أن يقدموا أو يؤخروا في البناء أي شيء، وانما من ناحية ما يمكن للبنوة النقدية أن تقدمه للأبوة من التمسك بها ودعمها الى آخر مشوارها.

ولا تبدو هناك جذور لهذه الظاهرة عند الرعيل الاول من نقادنا المؤسسين الذين كانوا لا يألون جهدا في ترسيخ التقاليد النقدية وأهمها الجدل الذي كان يدخلهم في نزاعات ومماحكات وحتى معارك أدبية بها يدافعون عن مشاريعهم الفكرية، فكيف بعد ذلك تكون لهم عباءة بها يغطون على أبناء يرعونهم دون غيرهم ؟!

وخلال العقود الاخيرة أخذت الأبوة النقدية تتمظهر هنا أو هناك بدرجات مختلفة وعلى مستوى فردي في العموم.. ولم تتضح أبعادها جلية إلا برحيل الاستاذ الدكتور صلاح فضل. هذا الرحيل الذي ما أثار ردود أفعال كتلك التي أثارها رحيل قامات لا تختلف في أهميتها عنه، ورحلت قبله بمدد متقاربة. فهل يكون السبب عدم معرفة الأوساط العربية حقيقة ما تركه الراحل من منجز نقدي زاخر؟ أم أن رحيله كان متوقعا برحيل مجايلين يشبهونه ومن ثم كانت الاثارة بمستوى معتاد وطبيعي ؟ قد تتعدد الاسباب لكن النتيجة واحدة وهي أن رحيل هذا الناقد لم يلق صدى في الوسط النقدي يكافئ ما تركه من منجز فكري وثقافي وأدبي. وبالطبع ليس وراء الامر تدبير أو تحشيد معينان بل هو مرتهن بالرأي العام المتشكل بتلقائية من المجموع النقدي الذي منه تتشكل النخب الثقافية والادبية.

ومعلوم ان هذا الرأي لا تشكله المراكز الثقافية المتنفذة لوحدها وانما تشترك فيه الهوامش الثقافية وكلما كانت فاعلية هذه الاخيرة كبيرة، بدا ثقلها في تشكيل الرأي العام أبعد أثرا وأكثر أهمية.

ولقد نظر الرأي العام الى الدكتور صلاح فضل بعينين اثنتين؛ الاولى رأته هَرَمَا نقديا والاخرى رأته أبا راعيا. وأثّر اجتماع الابوة بالهرمية على الرأي العام فلم يكن تفاعله مع رحيل الناقد بالمستوى المطلوب. ولقد زادت رعايته الابوية لنفر ـ ممن ادخلهم تحت عباءته فتضخم حجمهم بمجرد وصايته عليهم ـ من هرمية صلاح فضل كناقد بيده الحل والعقد.

واذا لم تكن البنوة لتضيف الى صلاح فضل شيئا مهما، فان أبوته أضافت الى من تبناهم شيئا كثيرا فعلا شأنهم بعلو شأنه وتميزوا بتميزه وتوسع نطاق شهرتهم باتساع مساحات شهرة صلاح فضل الاعلامية والثقافية.

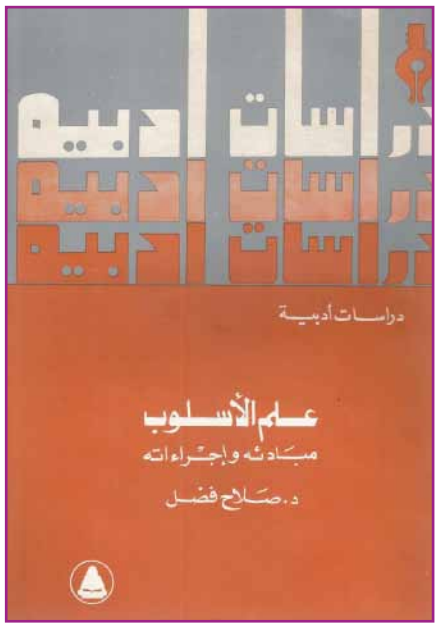

ولما انخرط الاب في المركز، انخرط المرعيون بانخراطه وصاروا في واجهة أية فاعلية نقدية أو بحثية يتخندقون مع الاب ويسيرون في تأدية الوظيفة النقدية على هدي مشورته.

هكذا صارت الأبوة ظاهرة، وأخذ نقاد معينون يتبعونها واجدين في أنفسهم آباء حتى لمجرد انهم يُدرّسون ابجديات النقد الادبي، ناظرين الى نفر من طلابهم على انهم ابناء ينبغي الاخذ بايديهم الى شاطيء النقد الامن سالكين سبيل الراحل د. صلاح فضل. وبعضهم تكلف النقد كي يتمظهر بقناع صلاح فضل الاب الراعي. ويشهد الوسط الثقافي العراقي اليوم وجود نقاد اكاديميين يتبنون بين الحين والاخر دارسين أدبيين، يتتلمذون على أيديهم لاسباب شخصية او غير شخصية.

ولا بد لهؤلاء أن يلازموا (الأب) فهو الذي سيعرّفهم بأهل النقد، وهو وحده الذي يفتح لهم عوالمه ويعرفهم على مساراته التي لا يستطيعون هم لوحدهم السير فيها من دونه. وهؤلاء بدورهم يعرفون جيدا انهم بمجرد ملازمتهم له سيكونون معروفين بشكل سهل لان الابوة هي التي تمهد لهم الطرق وتدخلهم عالم الادب من اوسع ابوابه. وحتى بعد الدخول سيظل الاب يرعاهم ولن يتخلى عنهم كنوع من المعاهدة المصيرية التي تمد في قوة الطرفين؛ الأب ومن تبناهم.

ولا مناص من أن تصبح البنوة والابوة وجهين لعملة واحدة، فيها الاب يريد للابناء أن يمثّلوا خطه ويجاروا نهجه ويخضعوا له، بينما يريد الابناء أبا يحميهم ويوفر لهم ما باستطاعته أن يوفره من مستلزمات ومقتضيات. ومن ثم لا تحضر الابوة إلا معها بنوتها، ترافقها في حلها وترحالها لكن ليس الظاهر كالباطن وأنّى لمن لا تتوفر فيه شروط الناقدية أن يكون ناقدا بمجرد مرافقته لناقد اتقن أكثر من لغة وهضم العربية مثلما هضم نقد أدبها وتعرف على مناهج هذا النقد وساهم في تطويرها وضخ الحياة في تطبيقاتها.

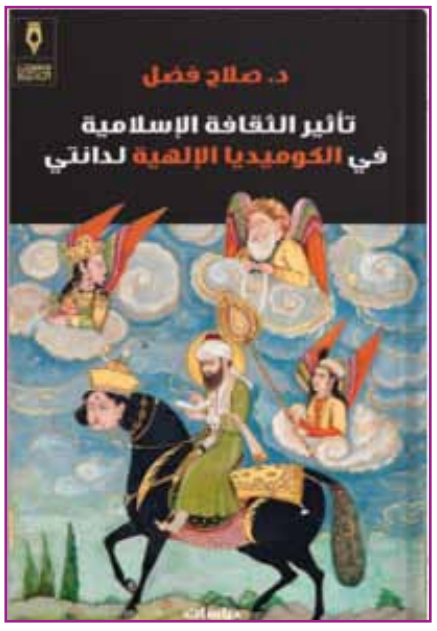

ومن المشروع أن نتساءل ما المنافع التي يمكن للثقافة العربية أن تجنيها من وراء ظاهرة الابوة النقدية؟ وما الذي يريده الناقد من وراء الابوة التي لن تسفر عن صناعة نقاد ما لم تكن فيهم الاستعدادات والمؤهلات التي تجعلهم فعلا نقادا ؟ وهل توجد للابوة النقدية شروط ومؤهلات ؟ وما الذي يفرض على الناقد ان يكون أبا راعيا ؟ أ هو الشعور بالوصول الى الغاية القصوى في النقد أم هي المسؤولية في تبني من لا طاقة تعينه على أن يكون لوحده مبدعا ؟ وما المعيار الذي يعطي للناقد الحق في تبني هذا دون ذاك ؟

لا خلاف في أن لأي ناقد أدبي رغبة في أن يكون معلما وصاحب مدرسة بما انجزه من كتب وأبحاث لكن الذي لا يختلف عليه اثنان هو أن النقد لا تكفيه المدرسية ما لم يكن هناك استعداد فطري يملي على المرء أن يكون ناقدا. ولكن ماذا عن الاخرين الذين غدوا نقادا ولم يكن لصلاح فضل أي فضل عليهم؟ هل ينظرون الى أبوته بمنظاره الاخلاقي الذي به نظر الى من تبناهم وقدّم لهم خبرته وساعدهم على شق طريقهم ؟ هل ينظر النقد المصري الى أبوة صلاح فضل النقدية على أنها ظاهرة ثقافية يجب أن تتكرر؟

عموما تظل الابوة النقدية فاعلية ذات مردادت تعود بالنفع على الاثنين الناقد المتبني والنقاد الابناء لكنها في الوقت نفسه لا تضيف تميزا بسبب طبيعتها الاخوانية فلا تصنع موهبة ولا تضيف اكتسابا. ومهما تتلمذ أحدهم على يد ناقد أب فلن يغير ذلك من حقيقة ما لدى التلميذ من فطرة واكتساب، أي أن وجوده قابعاً تحت عباءة أبيه لا يعني أنه سيكون ناقدا أدبيا، فقد يكون وقد لا يكون.

إننا لا نتوقع لهذه الظاهرة ـ التي توضحت برحيل الناقد صلاح فضل ـ أن تتسع، بدليل ما أثاره رحيله من رأي عام فلم يؤبنه سوى من رعاهم نقديا وبعض الشخصيات العامة.

وإذا بحثنا في نقدنا الراهن عن ظاهرة الاباء النقاد فلن يصعب علينا احصاؤها لمحدودية من يتمثل هذه الظاهرة وينقاد إليها. ويستلحق بذلك أيضا قلة الذين ينضوون تحت عباءة الأب الناقد،

وقد لا نغالي إذا قلنا إن تاريخ النقد الأدبي لن يهتم مستقبلا بالتأشير على ظاهرة الأبوة النقدية بل سيظل يهتم بالتأشير على الآباء المؤسسين.

صلاح فضل: حرّك مياه النقد الراكدة ورحل

بروين حبيب

يضع القدر في طريقنا أشخاصا يتركون بصمتهم فينا، ويكونون أدلاء على الطريق يصوبون مسيرتنا ويوجهوننا نحو الأفضل وتجاوز الذات، وفي الوقت نفسه يكونون أشبه بصوت الضمير حين نغفل عن أهدافنا، أو نتعب من ملاحقتها، أو نعجز عن تحقيقها ببساطة. قد نعدّهم على الأصابع غير أن أثرهم فينا مفصلي.

وقد فجعت قبل أيام بغياب أستاذي وصديقي وأبي الروحي صلاح فضل، ورغم أنني زرته وهو في العناية الفائقة ورأيت كيف ينطفئ من كان لا يتعب من النشاط الدائم تأليفا وتدريسا ومشاركة في الندوات وتحكيما في الجوائز، ورغم أن غيابه كان متوقعا بحكم مرضه وسنه إلا أنني كنت أطمع أن يمهله القدر لأهله ومحبيه وتلامذته قليلا. كان صلاح فضل «عرابي» كما يحلو لي أن أسميه، فمنذ أكثر من ثلاثة عقود كان البوصلة التي تعيدني دوما إلى الوجهة الصحيحة، وتكبح جماح مغريات النجومية والضوء ولهاث وسائل التواصل لحساب الدراسة والبحث والتدريس، وفي كلمة واحدة لحساب العلم.

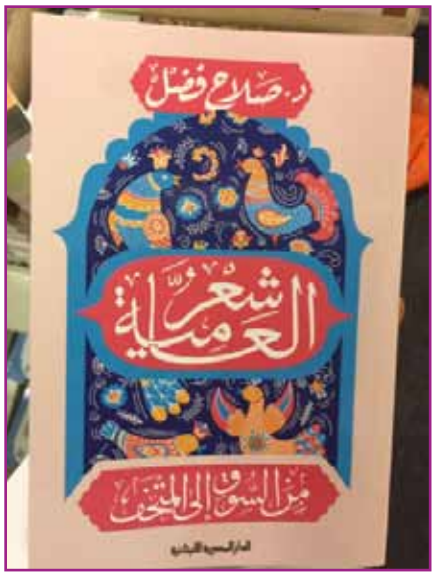

قبل تعرفي على صلاح فضل وتتلمذي عليه، كنت طالبة مولعة بالأدب أنتمي إلى ما اصطلح عليه بالجيل التسعيني في البحرين، أدين لعلوي الهاشمي بتشجيعي، حين نشر لي أولى محاولاتي الأدبية في صفحة «حقيبة الأدب» في مجلة «هنا البحرين» كما أدين للشاعر قاسم حداد بفتح مسالك لنا لم نألفها، وتذكيرنا بإبداعه، أن الشعر ليس ما تقدمه لنا المقررات الدراسية فقط، بل أوسع وأعمق وأجمل، فنحن الجيل الذي خرج من عباءته. وقد كتبت قبل سنوات في كتابي «دنتيلا.. أقل من صحراء»: «أتذكر ديوان قاسم حداد (قلب الحب).. قاسم لعب دورا مهما في تكريس تقاليد لكتابة وتذوق واستقبال واحتضان الشعر الجديد في البحرين».
كنت أنتمي إلى الملتقى الشبابي بأسرة الأدباء والكتاب البحرينيين، وأكتب قصيدة النثر رافعة شعار «الجمهور فكرة حمقاء» متأثرة كأبناء جيلي بكتاب أدونيس الباذخ «الثابت والمتحول» خاصة جزءه الثالث «صدمة الحداثة» ومولعة بمحمود درويش، وإن كان نزار قباني لم يتنازل عن عرشه في قلبي لأحد. أما تكويني النقدي آنذاك فكان ثقافيا لا أكاديميا، تحكمه قراءات مبنية على تتبع الجديد من الكتب وتوصيات الأصدقاء الأكبر تجربة، وحين وصلني كتاب «جدلية الخفاء والتجلي» للناقد كمال أبو ديب. وكان قد صدر في بداية الثمانينيات. أخذ بيدي كأليس في «بلاد العجائب» إلى حديقة سحرية اسمها «البنيوية» فترك الجرجاني والجاحظ وابن رشيق أماكنهم لرومان جاكوبسون ورولان بارت وتودوروف.
من حظ جيلي وفرة الترجمات في النقد الغربي إلى العربية، فكتاب دو سوسير المرجعي في اللسانيات ترجم خمس ترجمات في بلدان عربية متعددة خلال سنتين فقط (٨٥–٨٧) وبقدر ما مثلت ترجمة الكتب النقدية ظاهرة صحية، كان عدم استقرار المصطلحات بالعربية يسبب لنا إرباكا وأحيانا صعوبة في فهم النصوص، فكان لا بد لي من دليل يقودني في دروب غابة النقد الحديث المتشابكة. ومن حظي أن جاءنا صلاح فضل أستاذا زائرا إلى جامعة البحرين. ومع دخولي الجامعة ووجود صلاح فضل فيها، بدأت مرحلة جديدة في حسي النقدي وتكويني الأكاديمي، فما كان أشتاتا متباعدة وشذرات متفرقة من القراءات النقدية، انتظم في سلك واحد، ولم أعد أخشى الغرق في تنظيرات الشكلانيين الروس ولا تفكيكية دريدا، فربان السفينة ماهر، بل ساهم في صنعها من خلال تعريف القراء المبكر بمدارس النقد الغربية.
درسني صلاح فضل مادتيْ التحليل الأدبي وعلم الأسلوب، ومن أصلح منه لتدريس هذه المادة وقد كتب فيها كتابه «علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته» ولا يزال بعد قرابة أربعين سنة من صدوره سنة ١٩٨٤ مرجعا لا غنى عنه لأي طالب أو باحث في الموضوع. كما درستُ عنده مادة الأدب الأندلسي، وهو من رواد هذا التخصص فلم أقطع صلتي بالتراث العربي وإن كان أندلسيا. كان همي مشغولا بفهم المدارس النقدية الغربية، خاصة هذا الغول الجميل المسمى البنيوية فقد كانت لغة كتب البنيوية «عسيرة ومستعصية، بمصطلحاتها الجديدة، وتقنياتها غير المألوفة، وكان كثير من النقاد الجدد يزيدون أمرها صعوبة باللجوء إلى الجداول والرسوم البيانية» فجاء أستاذي في كتابه عنها فـ«اصطنع لغة جديدة تجمع بين الدقة المنهجية وروح العلم وشعرية الإبداع في سبيكة نقدية مصهورة» كما ذكر في سيرته النقدية (عين النقد(.
كان معلما حقيقيا موهوبا في التدريس اجتمعت فيه الثقافتان الأزهرية التراثية والغربية النقدية في امتزاج فريد، إلى الآن أذكر تحليله لقصيدة أبي تمام التي مطلعها: «رَقت حَواشي الدَهرُ فَهيَ تَمَرمَرُ» كان الأمر أشبه بتقشير برتقالة لنتجاوز القشرة إلى اللب، في تطبيق لافت للمناهج النقدية الحديثة على قصيدة عمودية عباسية. وهذا الولع بالنقد التطبيقي كان هاجس أستاذي الدائم، ومن ذلك مقال نشره في مجلة «فصول» الشهيرة التي كان من مؤسسيها ونائب رئيس تحريرها بعنوان «نص شعري وثلاثة مناهج نقدية» هي المنهج التاريخي الاجتماعي، ومنهج التحليل النفسي، والمنهج الدلالي الذي ليس في حقيقته سوى المنهج البنيوي مقنعا. نقل إلينا صلاح فضل هذا الولع، ووجدت فيه نفسي، فحبي للنقد وميلي إليه يطغى في أحيان كثيرة على الجانب الإبداعي في كتابة الشعر. كان يحثنا بطريقة غير آمرة وغير مباشرة على امتلاك الأدوات النقدية من خلال القراءات المكثفة، وما كان يذكر كتاباً إلا وبادرت إلى الحصول عليه وقراءته والرجوع إلى أستاذي ليفك لي ما استعصى عليّ. فبإشارات منه قرأتُ لمحمد برادة وعبد الفتاح كيليطو ويمنى العيد وخالدة السعيد زوجة أدونيس، التي كانت تحمل مشروعا نقديا كبيرا، لكن للأسف لم يكتب له الاستمرار. وكنت محظوظة أيضا أن درسني عبد السلام المسدي العالم الألسني الكبير في مرحلة الماجستير فأسهم في بناء وعيي النقدي.
ميزة صلاح فضل تبنيه للطلبة الذين يتوسم فيهم الجد الأكاديمي والوعي النقدي، فعلَ ذلك مع الباحث محمد البنكي، رحمه الله، وكان رهان النقد في البحرين غير أنه توفي شابا وهو في عز عطائه العلمي، وفعل ذلك معي حين أصر عليّ أن أكمل الماجستير في القاهرة، وحين تحججت في إمكانياتي التي لا تسمح، قال لي بلهجته الأبوية المحببة «قوي قلبك بيعي السيارة، وحين تحصلين على الشهادة تعرفين قيمة ما أقول لك». ونصحني بدراسة شعر نزار قباني حتى أخفف من (تهوسي) به كما وصف ذلك في مقدمته للرسالة حين طبعت كتابا.
وحين عملت في تلفزيون دبي خشي عليّ من الأضواء وتبعات النجومية أن تصرفني عن البحث العلمي ومسار النقد الأكاديمي، فألح عليّ أن أتسجل للدكتوراه بإشرافه، وبفضل صلاح فضل ناقشت أطروحتي في موضوع محبب إليّ وهو «شعرية المرأة في الخليج» فأتاح لي فرصة تطبيق المناهج النقدية الحديثة على مدونة القصيدة المؤنثة الخليجية.
بعد فترة التتلمذ على يديه في الماجستير والدكتوراه تحولت العلاقة بيننا من طالبة وأستاذها إلى صداقة علمية وشخصية، فكان يلفتني دائما إلى عدم إهمال البحث والعمل الأكاديمي ويكرر على مسامعي دوما «المذيعة مثل لاعب كرة القدم عمرهما المهني قصير» ويحثني على التواصل مع الوسط الجامعي، كنت آخذ عليه مجاملته لبعض من لا يستحقون في رأيي ما كان يسبغه عليهم من أوصاف فيجيبني بابتسامة مصحوبة بصمت يقول الكثير. وحين نما الريش في جناحي وصرت قادرة على الطيران خالفته في بعض آرائه، دون أن نختلف يوما فكان يفرح بالمخالفة أكثر من فرحه بالموافقة، وهي خصلة نقدية لطالما اتصف بها حيث تهمه الأسئلة أكثر من الأجوبة لأن الوصل نهاية. والطريق عنده أهم من الوجهة.
استضفت أستاذي في برنامجي «أهل المعرفة» مرارا، وكنت أبذل جهدا مضافا في تحضير حلقته لأستخرج منه ما لم يقله سابقا، لاسيما أنه كان إلى موسوعيته التي فتح آفاقها إتقانه الكبير للغة الإسبانية، قارئا نهما ينصحني بما يجد في عالم النقد، وألفت نظره إلى الروايات المميزة التي أطلعُ عليها بحكم متابعتي ومشاركتي في تحكيم الجوائز كالبوكر العربية وجائزة الشرقي.
رحم الله أستاذي صلاح فضل فقد رحل في صمت وشيعه إلى مثواه الأخير قلة من الناس بعد أن كان مالئ الدنيا وشاغل الناس.

عن صحيفة القدس العربي

صلاح فضل يعتمد الفن الروائي ليكتب سيرته

"عين النقد" يرسم مسارا معرفيا من الأزهر فإلى إسبانيا ثم المعترك الأكاديمي المصري والعربي

نشوة أحمد

في كتابه "عين النقد: سيرة فكرية" (دار بتانة،٢٠٢١)، يفرج الناقد الأكاديمي صلاح فضل عن السارد والحكاء، ذلك الذي لم يرض عنه فقمعه في بداية مسيرته الفكرية، ثم عاد بعد نتاج نقدي كبير؛ أثرى به المكتبة العربية، ليحرره ويروي عبره جانباً من سيرته؛ يتماس فيه فكره مع محطات من رحلته الحياتية، فيبرز من خلاله كلا من الناقد والإنسان.

وكما كان النقد بطل مساره الفكري، ظل يرفرف بجناحيه في سماء السرد. يوجهه الكاتب نحو حياته الأولى، تعليمه الأزهري، البيروقراطية الوظيفية، المناخ السياسي والاجتماعي والثقافي، الذي أحاطه طيلة عقود متوالية؛ شكلت الفضاء الزمني لسيرته الفكرية.

بدأ الكاتب سيرته مرتداً إلى طفولته، ويتمه في عمر أربع سنوات، بعد أن أفقده الموت أباه شاباً. وقام جده بتحويله، من الدراسة المدنية إلى الأزهرية، كوسيلة لاستعادة الأب الأزهري الغائب. وهذا ما أحبط الحفيد، الذي وجد الدراسة الأزهرية، تعتمد على التكرار البليد والاستذكار العنيد. لكن فضل لم يغفل فضائلها، في تشكيل قدراته اللغوية، وتنمية كفاءة الفهم لديه والتعبير. ولم يغفل كذلك مثالبها؛ كونها تصوغ عقول دارسيها ووجدانهم، على مقاس عصور قديمة، دون اختلاف. وهذا هو الخطر الذي نجا منه، عندما تحول إلى المعهد الثانوي بالقاهرة، صحبة عمه طالب الحقوق، لتكون كتب القانون بوابته ونقطة عبوره نحو العالم الفسيح.

إسبانيا رغماً عن حلمه

من المعهد الثانوي، ينتقل الكاتب إلى كلية دار العلوم، فيتحرر نهائياً من الجبة (العمامة) والقفطان. وتلتقط عينه الناقدة صراع القديم والحديث، التقليدي والطليعي. وينحاز إلى كوكبة الأساتذة، الذين يدرّسون النقد والأدب والفلسفة، وفق ما اكتسبوه من معارف من أعرق الجامعات الغربية.

تتسع الرؤية النقدية لديه، فتمتد إلى كافة نواحي الحياة، لتدرك كل متناقضاتها. تمر على الأيديولوجيات جميعها "اليمين واليسار"، لتنتهي باعتناق العلم، العدل والجمال.

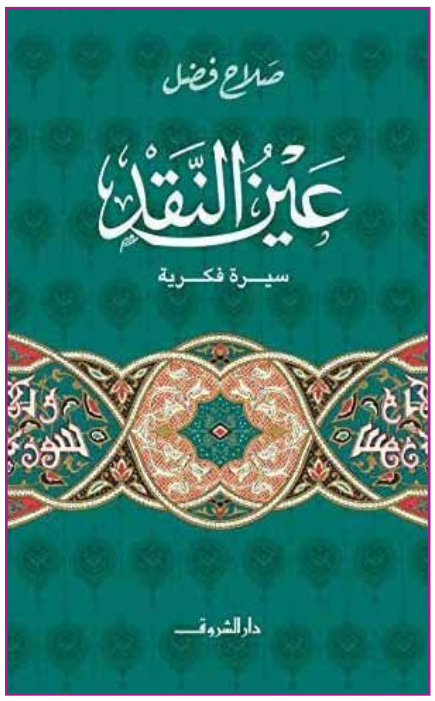

يعرج الكاتب إلى محطته التالية، وانتقاله إلى إسبانيا، بعد أن أجهضت وزارة علي صبري عام ١٩٦٥ حلمه، بإلغاء كافة البعثات، ومنها بعثة إلى فرنسا، كان هو أحد مرشحيها، وذلك لندرة العملة الصعبة حينذاك. ورغم ضيقه بالمكان واللغة وشعوره بالبقاء على هامش الحركة الفكرية، ما لم يستكمل تكوينه المعرفي في السوربون، فإنه سرعان ما تجاوز هذا الضيق، وتغلب على صعوبات اللغة، بل وظفر بموقع أكاديمي في الكلية الإسبانية، التي يدرس فيها. ثم دفعه الزخم والنشاط في حركة الترجمة إلى الإسبانية، من كل اللغات الحية؛ إلى الرضا عن اللغة، التي اعتبرها في البداية حاجزاً بينه وبين الفكر العالمي، ثم ما لبث أن أدرك أنها الطريق الأقرب إليه.

بين النقد والسرد

رغم اعتماده على مختلف تقنيات السرد، واستخدامه الأدوات والفضاءات الزمنية والمكانية والأحداث والشخوص، وهي عناصر أصيلة في فنون السير الأدبية؛ ظل لصوت الناقد الموقع الرئيس. فأشار إليه الكاتب مرة عبر إضاءات خاطفة حول منجزه النقدي. ثم أفرد له في مرحلة لاحقة من السرد مساحات أكثر اتساعاً. وخلاف حضوره الصريح منحه الكاتب حضوراً ضمنياً، تجلى في ما أبرزه من ثنائيات متقابلة، اجتمعت في الواقع والشخوص. فبدت في تضاد بين ثقافة سمعية وبصرية ورقمية من جهة، وثقافة أصولية كلاسيكية جافة من جهة أخرى. وبدت في بعض أساتذة الأزهر الذين يدعون السماحة، في حين يضمرون التعصب. وبدت مرة أخرى في احترام الغرب للعلم والعلماء، ليجد أحمد زويل مثلاً احتفاء يستحقه في الولايات المتحدة الأميركية. وتجددت المفارقات والمقارنات، بين غرب يعلي قيمة الحب وثقافة التعبير عنه ولو في قبلة. وشرق يخجل من هذه القبلة ويستهجنها، في حين لا يتحرج من إظهار الكراهية، وربما يتفاخر بها.

استمرت التناقضات التي التقطتها عين النقد، لتحتويها لغة موسومة بوسم الناقد المؤسس، تجمع بين العمق والبلاغة والسلاسة، تنزف بعض الأسى والمرارة، لا سيما حين ينقل خيباته الصغيرة، التي حالت بينه وبين الحصول على ما يستحقه من جوائز. ابتداء من الجائزة التشجيعية، ومروراً بجائزة الكويت في النقد الأدبي، التي حجبت أيضاً، ليحيل الكاتب عبر ما ساقه من أمثلة، إلى فساد يعاني منه الوسط الثقافي العربي.

ومثلما كانت اللغة شديدة الحساسية في تجسيد مواطن الخيبة، لم تخل من طرافة وحس ساخر في غير موضع، وإن اختار لها الكاتب أشد المواضع مأساوية... "فوجئت بصاحب محل يسألني عن جنسيتي وأنا أطلب منه بعض المرطبات، عندما أجبته أنني مصري قال لي "ما كانش" أي لا توجد. سألت مدير الكتب وهو من قدامى المحاربين عن السفينة التي تعبر البحر الأبيض كل يوم إثنين من وهران إلى مدينة إليكانتي بإسبانيا، أجابني أيضاً "ما كانش"، فسألته ما الذي لا يوجد: هل السفينة أم البحر الأبيض أم يوم الإثنين؟ رد بضيق: "ما كانش"" ص٩٦.

الناقد الحديث

تتيح السيرة الفكرية لصلاح فضل، اكتشاف أدوار أبعد للنقد، من استكناه أسرار النصوص، وإبراز جمالياتها. إذ يلعب دوراً اجتماعياً وقيمياً وإنسانياً، وهو ما قام به فضل، حين كتب عن إنتاج الدلالة في شعر أمل دنقل. فخلافاً على أن مقاله كان نموذجاً تطبيقياً لنظريته في البنائية، فإنه كسر من خلاله دائرة التحريم حول اسم دنقل، والتي ألصقت به نتيجة معارضته نظام السادات. ولا يكشف الكاتب عبر سرده عن الأدوار القيمية للنقد وحسب، وإنما يوثق تاريخ الواقع الثقافي المأزوم، خلال حقبة الرئيس السادات. ويكشف عن استخدام السلطة للوازع الديني؛ استخداماً سياسياً، بهدف إقصاء أي معارضة. ويلفت في الوقت نفسه للخطاب المجتمعي خلال تلك الحقبة، وسيادة النبرة الأصولية التي أشاعتها بقايا جماعة «الإخوان» لمحاربة التنوير. وهو ما أصر فضل على مقاومته، عبر منبر وليد في تجربة نقدية فاصلة هي مجلة «فصول».

وتطرق الكاتب إلى واحدة من أهم المحطات، التي أسهمت إلى حد كبير في إثراء رحلته الفكرية؛ وهي المكسيك، التي انتقل للعمل فيها أستاذاً جامعياً، لتكون بمثابة نافذة جديدة، تطل على كنوز ثقافية خارج الحدود. تضرب مثالاً منقطع النظير، على تجاور الثقافات والأعراق وتحاورها. ورصد كذلك تميزها، بالعديد من الصناعات التقليدية. وفسر في الوقت نفسه، أسباب غياب مظاهر التأثير العربي، عن ذاك الثراء الثقافي الباذخ، في القارة الجديدة، في فنون العمارة والأدب والموسيقى والأزياء، ومختلف أشكال الحضارة. وأبرز أيضاً الانفجار الروائي المدوي لفورة الأدب في القارة الشابة، وتوظيفه السحر والأساطير، مدللاً على مرجعيتها في ثقافتهم وعاداتهم المختلفة، لا سيما في طقوسهم للاحتفال بالموتى.

الذات في ميزان النقد

لم يمارس صلاح فضل نقداً أدبياً، أو اجتماعياً وحسب. وإنما عمد إلى ذاته، ناقداً عزوفه عن الانتماء لأي تيار سياسي. ومفسراً ذلك بخشية السجن والقضبان. رغم ظنه حينذاك، أو إعلانه أن الأكاديمي يجب أن يقف موقف المحايد، على مسافة واحدة من كافة الاتجاهات. وربما قسى فضل على نفسه، وهو الذي عمد إلى كسر حصار السلطة على أمل دنقل، تحت شعار التحريم. وهو أيضاً الذي أعلن للإعلام أثناء وجوده في رحلته الثانية بإسبانيا، مستشاراً ثقافياً ومديراً للمعهد المصري للدراسات الإسلامية؛ أن التطبيع نكتة. وحمل جيهان السادات رسالة لزوجها، مفادها أنه لن يدخل التاريخ بعد عبد الناصر، إلا عبر الديمقراطية. وغير ذلك من مواقف صريحة، كانت تعبر عن ولعه بالديمقراطية. تلك العروس التي شاهد بهاءها في الغرب، وفتن بها، لينقل عبر صفحاته بعض تجاربه، لا سيما تجربة المكسيك، التي اتخذت عبارة «إعادة الانتخاب جريمة» شعاراً لها. فلم تبال شعوبها بأن تأتي الانتخابات بالأسوأ، مقابل أن تحمي ذوي السلطة؛ من إدمانها.

إمتلاك السرد

تحلى قالب السيرة الفكرية بالعديد من جماليات السرد، التي جاءت موازية ومشتبكة مع الخطاب النقدي. فالناقد الذي يلفت لجمالية المكان والحضور البصري والسمعي في البناء السردي، يحكي عن إسبانيا ساردا... "أجمع نثار العطر من شوارع طليطلة الضيقة، المشحونة بعبق التاريخ وتحف الآثار المنحوتة في خشب الأبنوس والمطرّزة على الحرير الدمشقي، وأصداء الأدعية والابتهالات في المساجد والكنائس.." ص٨٠.

كذلك استحضر فضل الأصالة من التراث الشعري، ونثرها في طيات سرده. فتارة يستدعيه شاهداً لإثبات نظرياته النقدية. وتارة ليعزز من جمالية النص. تلك التي استدعى من أجلها المزيد من التقنيات؛ كالتناص مع الموروث الديني والفلكلور الشعبي. والتناظر بين ضبابية الحياة العامة قبل ١٩٧٣، والحياة الشخصية للكاتب. والومضات الحوارية. فضلاً عن الرمز والإحالات الضمنية، التي فسر عبرها سمات مرحلة تاريخية فارقة، وهموم ساستها. ومثلما كان انتقال الكاتب إلى إسبانيا والمكسيك، نافذة له على الثقافات الإنسانية الأخرى، وما تتسم به من تنوع وثراء، نجحت سيرته في تجسيد ثراء تلك الثقافات، عبر خطاب معرفي، نقل صورة حية للثقافة الإسبانية، وشعوب أميركا اللاتينية.

أعلام وكتب

لم يكن فضل ليتمم سيرته الفكرية، دون العروج على لقاءاته بأهم أعلام الفكر والأدب، في مصر وإسبانيا والمكسيك. مثل: لويس عوض، والأهواني، وإحسان عبد القدوس، وتوفيق الحكيم، والمعماري حسن فتحي، والمفكر دون إميليو غارثيا غومث، وغيرهم من اسماء عربية وغربية. ولم يكن وهو يرى بعين النقد؛ إلا ليضيء منجزه النقدي، بما يتسق مع زخم سيرته الفكرية.

ومن كتبه التأسيسية "النظرية البنائية في النقد الأدبي"، الذي يحلو لفضل تسميته بالابن البكر. ذلك الذي أنجبه البحث الشاق، والطموح المنهجي. ليشرح عبره نظرية البنيوية بكل أبعادها التاريخية والمنهجية، ومبادئها النظرية، وتطبيقاتها على الأجناس الأدبية.

أما كتاب "المنهجية الواقعية في الإبداع الأدبي" فقد سبق فيه بالبحث في الأسس الجمالية للواقعية، التي بشر بها لوكاش، وسوسيولوجيا الأدب، والواقعية السحرية في أدب أميركا اللاتينية. إذ كان فضل من اوائل الذين كتبوا عن غارثيا ماركيز ورائعته "مئة عام من العزلة"، قبل أن يحصل على نوبل.

الكتاب الثالث الذي تعرض له فضل، ضمن سيرته الفكرية؛ كان كتاب "تأثير الثقافة الإسلامية في الكوميديا الإلهية لدانتي". وهو أول بحث موثق، حول قضية شائكة في الأدب المقارن؛ كان شاهداً على خصوبة التراث العربي والإسلامي، وتأثيره في درة الإبداع الأوروبي، في العصور الوسيطة. ليتصدى فضل عبره، لإشكالية التشكيك في وثيقة المعراج، التي كانت دليلاً دامغاً، على تأثير التراث العربي والإسلامي، في أهم ملحمة أدبية؛ وضعت أصول اللغة والأدب في إيطاليا.

أما كتاب "علم الأسلوب"، فكان حلماً لأستاذ الكاتب؛ الدكتور غنيمي هلال. وقد ورث فضل حلم أستاذه، دون أي تفصيلات أخرى. وسعى لتحويله إلى حقيقة، رغم العثرات والصعوبات.

وعلى خلاف أغلب الباحثين في الأدب الأندلسي، كتب فضل كتابه "ملحمة المغازي الموريسكية"، ملتزماً بالمنهج العلمي في التحليل المقارن، دون الانجراف في التيار العاطفي، الذي ينساق للتنديد والتهويل، في فظائع محاكم التفتيش. ولم يكتف الباحث النهم؛ بالإشارة إلى ما قام به من بحث وتأطير، واستخلاص نظرياته النقدية، وإنما تطرق إلى تطبيقها عبر مقالاته، التي تناولت نماذج إبداعية، من أعمال العديد من الكتاب والمبدعين.

عن الاندبندنت عربية

فى وداع صلاح فضل

د. أحمد زكريا الشلق

رحل عن عالمنا الأديب والمفكر والناقد الأدبى الكبير الدكتور صلاح فضل فجر السبت ١٠ ديسمبر ٢٠٢٢ بعد رحلة عطاء علمى وثقافى كبير، وبعد معاناة من مرض أمسك بتلابيبه لسنوات لم يكف خلالها عن العطاء تحت وطأة العلاج، وبرحيله فقدت مصر والعالم العربى عالما جليلا وناقدا صادق الكلمة، عالما بأسرار اللغة والأدب، متبحرا فى فنون الأدب ونظرياته، وخبيرا بالأدب المقارن، ومناهج النقد الحديث، مواكبا لحركة الإبداع ، ساهما دءوبا فى متابعتها.

إنها رحلته الإنسانية التى تشهد على أن ابن قرية شباس الشهداء بكفر الشيخ المولود عام ١٩٣٨، الذى بدأ رحلته بالالتحاق بالكتاتيب فالمعاهد الأزهرية، ليصبح أزهرى النشأة والأساس، ثم انتقل إلى دار العلوم بجامعة القاهرة ليتفوق ويعمل معيدا بها منذ عام ١٩٦٥، استطاع هذا الأزهرى الدرعمى بدأبه وبتفوقه أن يحصل على بعثة للدراسات العليا فى إسبانيا، حيث حصل على دكتوراه الدولة من جامعة مدريد المركزية عام ١٩٧٢. ولأنه كان يتمتع بحيوية ومقدرة خاصة فقد عمل مدرسا للأدب العربى والترجمة بكلية الفلسفة والأدب بنفس الجامعة منذ عام ١٩٦٨، كما ساهم فى إحياء تراث ابن رشد بالتعاون مع المجلس الأعلى للبحث العلمى فى إسبانيا.

وعندما عاد إلى أرض الوطن، عين بجامعة الأزهر أستاذا للأدب والنقد بكليتى اللغة العربية والبنات لنحو عامين، انتدب بعدهما أستاذا زائرا بجامعة المكسيك المستقلة لنحو ثلاث سنوات نجح خلالها فى إنشاء قسم للغة العربية وآدابها فيها منذ عام ١٩٧٥. وعندما عاد إلى مصر انتقل إلى جامعة عين شمس أستاذا للنقد الأدبى والأدب المقارن منذ عام ١٩٧٩، وكنت أعمل حينئذ معيدا ومدرسا مساعدا بنفس الكلية، وكنت كلما رأيت إعلانا بالكلية عن مناقشة رسالة جامعية يشرف عليها كنت أحرص على حضورها منبهرا بأدائه وأستاذيته.

ولخبرته بالجامعات الإسبانية والحياة الثقافية بها وجهوده فى خدمتها، انتدب مستشارا ثقافيا لمصر بها ليقضى هناك سنوات خمسا تولى خلالها رئاسة تحرير مجلة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمدريد، الذى تأسس بتوجيهات من طه حسين. وبعد عودته إلى مصر انتدب عميدا للمعهد العالى للنقد الفنى بأكاديمية الفنون ليقضى فى منصبه هذا نحو ثلاث سنوات (١٩٨٥ – ١٩٨٨). ونتيجة لسمعته العلمية التى أحرزها تسابقت الجامعات العربية لدعوته أستاذا زائرا بها، خاصة جامعتى صنعاء والبحرين فى بداية التسعينيات من القرن الماضي، حتى استقر فى كليته بعين شمس يدرس تخصصه الأثير، وظل فى وظيفته هذه إلى أن عين أستاذا متفرغا حتى بلوغه السن القانونية. وبالرغم من أنه لم يسع إلى تولى أى مناصب إدارية ، فإنه تولى رئاسة قسم التاريخ بكليته كما انتدب لرئاسة مجلس إدارة الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية (٢٠٠٢ – ٢٠٠٣) حيث لعب دورا كبيرا فى تنشيطها. ثم تفرغ بعدها لنشاطه الأكاديمى والثقافى كما هو معروف. وفى عام ٢٠٠٣ انتخب عضوا فى مجمع اللغة العربية، وقدم مشروعا كبيرا لتطوير العمل بالمجمع يستهدف توسيع دائرة نشاطه ونشر رسالته، حتى صدر له قرار وزارى بتكليفه قائما بعمل رئيس المجمع منذ نوفمبر ٢٠٢٠.

أما عن مؤلفاته فقد أثرى المكتبة العربية بمؤلفات على درجة كبيرة من الأهمية، وأشهر مؤلفاته فى مجال نظرية الأدب كتابه الرائد الذى شرح فيه النظرية البنائية فى النقد الأدبى الذى صدر عام ١٩٧٨،والذى سماه ابنى البكر، وقد أراد به شرح هذه النظرية بكل أبعادها التاريخية والمنهجية ومبادئها النظرية وتطبيقاتها على الأجناس الأدبية، ثم ثنى هذا الكتاب بآخر عن علم الأسلوب تناول فيه مناهجه ومبادئه وإجراءاته (١٩٨٤) . وذلك بعد أن بهرته أفكار رولان بارت التى كانت تشير إلى تغير جذرى فى استراتيجية الخطاب النقدى ولغته، فلم يكن يعلن موت المؤلف وانتهاء عصر المنهج التاريخى فحسب، وإنما أثبت احتضار الأيديولوجيات.. وكان يعمد إلى التمثيل المرهف لتركيب النص الأدبى ليقبض على عصبه الحساس ويشرح كيفية أدائه لوظائفه الجمالية. أما كتابه علم الأسلوب فقد درس فيه تاريخ هذا العلم وطبيعته ومفهومه وأطره النظرية وصلته بعلم اللغة والبلاغة. ومن الشعراء والأدباء الذين خصص لكل منهم كتابا بذاته، كتاب: فصول عن شوقى أمير الشعراء (٢٠٠٩)، محمود درويش حالة شعرية خاصة (٢٠١٠)، عوالم نجيب محفوظ (٢٠١١). وفى عام ٢٠١٩ فاجأنا صلاح فضل بكتاب جديد عن شعر العامية الذى أجرى فيه مصالحة بين اللغة الفصحى واللهجة العامية، فقدم قراءة نقدية لشعر العامية يستهدف نقلها من سوق الحياة إلى متحف الفن، وجعل يحدثنا عن العلاقة الحميمة بين اللهجات العامية والمستوى الفصيح ودعا إلى أن نعترف بها ونكف عن اعتبارها تهديدا للفصحى. وذكر أن شعراء العامية المصرية يقفون فى مستوى إبداعاتهم جنبا إلى جنب مع كبار المبدعين بالفصحى، فكتب دراسات نقدية عمن سماهم سلالة النديم: بيرم وجاهين وفؤاد حداد والأبنودى وسيد حجاب. وذكر أنهم لا يقلون أثرا عن سلالة شوقى وحافظ وناجى وعبدالصبور وحجازى ودنقل، وأن كتاباتهم نفذت بالغناء والموسيقى إلى أعماق الوجدان الشعبى بأبعد مما بلغته الشعرية الفصيحة.

ونلاحظ أنه قدم خمسة أعمال مترجمة عن المسرح الإسباني، واهتم بشكل خاص بإبداعات بويرو باييخو بالذات فترجم له ثلاثة أعمال . وأخيرا كتب صلاح فضل سيرة حياته الإنسانية والفكرية فى عملين غاية فى العذوبة والجمال، أولهما كتاب عين النقد وعشق التميز، مقاطع من سيرة فكرية (٢٠١٨)، والآخر هو صدى الذاكرة (٢٠٢١). رحم الله صلاح فضل الذى احتضن جسده ثرى وطن أحبه وأخلص له، وبقيت روحه حية فى ملكوت بارئها.

عن صحيفة الاهرام

manarat

www.almadasupplements.com

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير
فخري كريم

رئيس التحرير التنفيذي
علي حسين

سكرتير التحرير
رفعة عبد الرزاق

منارات

طبعت بمطابع مؤسسة المدى للاعلام
والثقافة والفنون

صلاح فضل: فكرٌ.. ولكنه بروح تنزيل

إبراهيم الكوني

«كُن عبداً للفلسفة، تغدو سيّداً في الحرية».

(أبيقور)

رومانسيةٌ هي الصداقة التي يلعب فيها الابداع دور السفير في العلاقة.

اللقاء الأول؟

للقاء الأول كان في القاهرة مطلع ١٩٩٨م في مؤتمر الرواية الأول، ولكن من وراء حجاب. فقد رنّ جرس الهاتف في غرفتي بالفندق لأسمع صوتاً يتغنّى: "أنا إنسانٌ عاشقٌ لإبراهيم الكوني، اسمه صلاح فضل"، فلم أملك إلّا أن أجيبه: "وإبراهيم الكوني عاشقٌ لإنسان اسمه صلاح فضل". هاتفني ليوجّه لي الدعوة لمأدبةٍ عشاء أقامها في بيته العامر، مع عدد من الأدباء، تناولنا فيها طعوماً من صنع يدي عقيلته الباسلة، التي كانت له في مباراة الوجود ساعداً أيمن، قبل أن تفجعه فيها الأقدار، بعد تلك المناسبة بسنوات، فألمتنا جميعاً. بفضل روح صلاح فضل صرنا صديقين على الفور، لأن أي قوّة تستطيع أن تقاوم قلباً ينزف حبّاً؟

إنه النزيف القدسي نفسه، الذي سطّر به دراساته القيّمة، عن مختلف الأعمال الروائية، قبل أن ألتقيه شخصياً بأعوام. فهل كان الرهان على النقد في بُعده الأدبي، أم هو رهان نموذج فضل على نقد الواقع الإنساني؟

فلو تأمّلنا هذه المفردة في هويّتها المتداولة في اللسان اللاتيني، الذي استعارت منه اللغات الاوروبية، مصطلحها الكانطي (kritik)، لاكتشفنا أن مدلولها لا يقتصر على مجرد تدخّل جراحي، في حقّ نصّ، ولكنه مغامرة باسلة ذات علاقة، في الأصل، بالتفلسف.

ماذا يعني "كانط" عندما يستخدم كلمة «kritik» الألمانية المستعارة من اللاتينية، لينصّبها وصيّاً على كل أعماله المرجعية الثلاثة: "نقد العقل الصريح"، أو "نقد العقل العملي"، أو "نقد مَلَكَة الحكم"؟

إنه يعني بُعداً أبعد من كلمة «نقد»، المستعملة في معجمنا، كمجرد «تنقيب»، أو «تحليل»، أو «تأويل»، لأن كلمة «فلسفة»، وحدها تستطيع أن تترجم لنا الدلالة الأحقّ بمنزلة المغامرة النقديّة الحقيقية. وهو ما يعني أن مأزقنا هنا لا يتعلّق بمنطق اللغة، ولكن بالمفهوم في اللغة. فالنّقد تحكيمٌ لحكم العقل، في منازلة واقع ظلمات، لاستخراج غنيمة مخفيّة، تسكن قيعان ذاكرة، ذاكرة مكبّلة بأصفاد زمن ضاع. ولما كان العقل مبدأ مستعار من العقال، الدالّ على القيد، فلا ضمان لاستجلاء أدغال الزمن الضائع، حيث تقيم الغنيمة، بدون استنفار ملكة التفكير، التفكير في سيرورة «تفكّر»، التفكّر بالمفهوم الأفلاطوني، القادر وحده على تحقيق مرتبة «التذكّر» في سلّم المبارزة، وهو ما لا يتحقق بدون الاستعانة بسلطان مارد آخر، أقوى حجةً من العقل، ومن المنطق، ومن الذاكرة كمجرد مستودع، ألا وهو الحدَس، القادر وحده على استنطاق المنسيّ في خزنة المستودع، لغرض تحرير الطريدة، تحرير الغنيمة، تحرير القيمة، المكتومة الأنفاس بورم اسمه النسيان، فظلّت رهينة الأسر طويلاً؛ ليستوي التحليل، أو التأويل، في التهليل، تلك المنطوقة المشفوعة بروح غيبيّة، بروح ألوهية، فلا نعدم في هذه الأنقاض، المجبولة بخضراء دمن، العثور على الطريدة، التي نزفنا في طلبها لا الدم وحسب، ولكن نزفنا الروح أيضاً، وإلّا لما أسفر الكشف عن قدس أقداس هو: الحقيقة!

الحقيقة ثمن الغزوة المميتة، التي لا نفلح في الفوز بها بدون إدمان دين الحرية، بخوض حرب تَوليد هذا الجنين المقدّس من رحم ذاكرة مسكونة بالذخائر المنسيّة، فلا تتنازل لنا عن ثرواتها بدون وساطة الحدس، لأنه، بما هو شاهد عيان على الواقع، بيد أنه وحده يمتلك الشهادة في حقّ العدم أيضاً، أو ما يروقنا أن نسميه عدماً.

هذه الملحمة التحريرية، المتوّجة باغتنام حجّة هي الحقيقة، هي ما عناه صاحب "لسان العرب" في موسوعته بـ"تمييز الدراهم بإخراج الزيف منها" تعبيراً عن كلمة "نقد"، المستعملة في أدبياتنا التقليدية. وكلمة "تمييز" هنا، ليست سوى "تحرير"، والدراهم عملة اقتصادية ذات سلطة دنيوية تبدو حسيّة، ولكنها في حال عالم الروح، ذات وزن حدسيّ. وأن تكون حسيّة فهذا يعني أنها عرضة للتزوير دوماً، ولكن "النقد" هو ما يعصمها من الزيف، لتستعيد النقاء المفقود، تستعيد البكارة الضائعة، تستعير، بحملة التحرير العصيّة، براءة القيمة الروحية، بعد تطهيرها من دنس الواقع الحرفيّ، لتتبوّأ عرشاً هو الحقيقة.

ومحفل الأوصياء على هذه الحكمة، الذين أوتوا القدرة على استنطاق الغيوب، لتحرير الافكار من زور الحرف المميت، وحدهم جديرون بلقب مهيب ابتذلناه بسبب سوء الفهم، وهو الناقد.

فالناقد، إذاً، هو الحكيم، هو الفيلسوف، هو الفارس في تلقين الأجيال دين الحقيقة، عملاً بوصية أبيقور: "كُن عبداً للفلسفة، تغدو سيداً في الحرية».

وهو ما يعني أن الابداع عمل ديني بالطينة الأولى، ولا يكون حجّة في واقعنا الدنيوي إلا بسبب هذه الطينة البدئية. والوصيّ على الإبداع، ليس مبدع الإبداع، ولكنه ناقد الإبداع: الناقد في ماهيّته الحقيقية، ماهيّته الربوبية، ماهيّته كقابلة تحترف تيسير ميلاد الأجنّة القدسية من باطن البعد الغيبيّ، ليغدو هذا البعد واقعاً مستعاداً، فردوساً مستعاداً، القابلة فيه تلعب دور عرّاب وجود.

وصلاح فضل رسول الحقيقة، المنتمي إلى حزب هذه الملّة. وقيمته الحقيقية إنّما تكمن في هذه الهوية، التي مارست النقد بهذا المفهوم، المنزّه عن حضيض واقع الحرف الميّت، بدليل أن الإبداع لا يستطيع أن يتباهى بمؤهّلاته الجمالية، المنتدبة في حياتنا كمتعة، إلا من ملكوت ذلك التنزيه، من ملكوت هذا التنزيل!

عن سكاي نيوز